

قصة رمزية

الدم النقي كله



- تصوّر هذا:

إنك عائدٌ إلى المنزل بعد رحلة عمل لساعاتٍ طويلة، فتسمع راديو السيارة، وتنتبه إلى خبرٍ يُذاع يقول: "إنَّ في قرية صغيرة في الهند، فوجئ الأطباء بوفاة عددٍ قليل ما بين 3 أو 4 من القرويين هناك، بسبب حالة أنفلونزا لم يَرَوْا مثيلاً لها. إنها ليست أنفلونزا، ولكنها مرضٌ غريب لم يعرفوه بعد. وقد أرسلوا عدداً من الأطباء لفحص هذه الحالات".

وفي اليوم التالي تستمع إلى الأخبار، فتعلم أنَّ العدد تزايد، فأصبح 30 ألف من القرويين.

ويبدأ التليفزيون في نشر هذه الأخبار، وأنَّ بعض سُكَّان ولايات أمريكا الجنوبية، بدأوا في السَّفَر بعيداً خوفاً من هذه الآفة التي ظهرت مُجدِّداً.

وفي الصباح التالي، تسمع عن انتشار الفيروس في باكستان وأفغانستان وإيران... وفي كل مكان تسمع أخباراً عن هذا الوباء. ثم تسأل نفسك: "كيف نستطيع مواجهة هذا الوباء؟"

ثم يظهر الرئيس الفرنسي على التليفزيون، ليُعلن أنَّ فرنسا قد أغلقت حدودها مع جيرانها، ممَّا يصدّم كل أوروبا؛ بل إنَّ رحلات الطائرات توقَّفت بين الهند وباكستان وإيران. أما أنت فتتابع هذه الأخبار عن كَثَبٍ، وخاصةً حينما تسمع قصة رجلٍ من باريس قد أصابته هذه الأنفلونزا الغريبة! لقد اخترق هذا المرض أوروبا!

مرَّةً أخرى، تسمع عن هذا المرض: فالإنسان الذي تعرَّض لهذا المرض، يُصاب لمُدَّة أسبوع، ولكن بدون أعراض ظاهرة. ثم يُصاب لمُدَّة أربعة أيام بأعراضٍ لا تُصدِّقها من غرابتها، ثم أخيراً يموت!

ثم تتواتر الأخبار، بأنَّ انجلترا قد أغلقت حدودها مع دول أوروبا، إذ سبق ذلك إصابة أشخاص من عدَّة مدن هناك: ليفربول، وما جاورها.

وفي صباح اليوم التالي، تُفاجأ بهذا الخبر: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يُعلن في التلفاز الآتي: "بناءً على مخاطر أمنية، فإنَّ كلَّ الطائرات القادمة من أوروبا، والمسافرة إلى هناك، قد أُغِيثَ رحلاتها. فإذا كان أحبَّاءكم هناك، فنحن نأسف لذلك، فلا يمكننا قبول دخولهم إلى بلادنا، حتى نجد علاجاً لهذا المرض".

وفي غضون أربعة أيام تصير الدولة كلها غارقة في حالة من الخوف والرعب من جراء هذا المرض: "الأنفلونزا المجهولة!" والناس يقولون: "ماذا لو أصاب هذا المرض بلادنا؟" وتكلم الوعاظ من على المنابر وقالوا: "إنه تأديب من الرب!"

وفي غد هذا اليوم يستمع الجميع لهذا الخبر: "توجد امرأتان في مستشفى قريبة من العاصمة تحتضران بسبب هذا المرض المجهول". فلقد سيطر هذا المرض على كل أرجاء الدولة واخترق الحدود. بدأ الأطباء والعلماء يعملون على مدار الليل والنهار في محاولة منهم لإيجاد لقاح مُضاد لهذا المرض. ولكن لم تنجح كل هذه الأبحاث. ونتيجة لذلك، فقد انتشر المرض في: كاليفورنيا، أريزونا، فلوريدا... فالمرض ينتشر كالوباء، ولا نتيجة للأبحاث لدرء الخطر عن الدولة كلها.

الأخبار السارة:

تتداعى الأحداث، ثم تنفرج عن خبرٍ سار أبهج الجميع: لقد تمَّ فكُّ شفرة هذا المرض اللعين، وعرف العلماء أنَّ لقاحاً(1) يمكن أن يتمَّ تكوينه لمواجهة هذا المرض. فسوف يتمُّ أخذ دماء شخص مُتبرِّع لم يُصَبْ بعد بهذا المرض.

ولذلك تمَّ التنبيه على كل الناس أن يذهبوا إلى المستشفيات الرئيسية ليتمَّ فحص عينات الدم الخاصة بهم.

ونتيجة لهذا التنبيه، يذهب الجميع إلى المستشفيات. وهناك تجد جارك مع امرأته وأولاده، وتجد أقاربك: عمك مع عائلته، وخالك مع خالتك وأولادهما الذين لم ترهم منذ زمنٍ بعيد. ويتبادل الجميع التحيَّات والقبلات.

فيدخل الجميع الواحد تلو الآخر، لأخذ عينة الدم منه، ثم ينتظر الجميع - وأنت منهم - في ساحة انتظار وهم مترقّبون نتيجة التحاليل.

))+(

فجأة، يخرج شخص من الطاقم الطبي يُنادي على اسم مُعيّن. وتجد أنّ ابنك يُنبّهك أنه اسمه! وقبل أن تنتبه له، تجد ابنك قد خُطِفَ من جانبك، وأخذَ إلى داخل المستشفى. فتصرخ وتقول: "انتظروا! ما الأمر؟" فيقال لك: "إنّ دمه نقي، لم يتلوّث بعد. ولذلك سوف نتأكّد أنه لم يُصَب بالمرض اللعين. ونعتقد أنّ فصيلة دمه مُطابقة للشروط!"

تمرّ خمس دقائق ثقيلة على الجميع، ثم يخرج الأطباء والممرضات، وبعضهم يبكي، والآخرين يُهنئون بعضهم بعضاً وهم فرحون! فيأتي نحوك طبيب كبير ويقول لك: "شكراً، يا سيّد. فدماء ابنك نقية تماماً! يمكننا أن نصنع منها اللقاح المطلوب".

وتنتشر هذه الأخبار إلى كل من حولكم. فيفرح البعض ويُهنئون بعضهم بعضاً، والبعض الآخر يبتهجون مُصلّين وشاكرين لِمَا توصل إليه الأطباء.

ثم يأتي الطبيب الكبير ويُناديك أنت وزوجتك، قائلاً: "هل من الممكن أن نتكلّم قليلاً؟ ثم يستطرد ويقول: "لم نكن نعرف أنّ صاحب هذه العينات سيكون صغيراً هكذا؟... نحن نريد منكما أن توقّعا على صيغة موافقة!"

فتقرأ هذه الورقة، ثم تبدأ في التوقيع بالموافقة؛ ولكن تنظر إلى بيان غير مكتوب في الورقة، وهو يحتوي على كمية الدم التي ستؤخذ من المتبرع! فتسأل الطبيب: "كم هي كمية الدم المطلوبة؟ هنا تختفي ابتسامة الطبيب، ويقول: "لم نكن نعلم أنه ولدٌ صغير، فلم نكن مُستعدّين لذلك. فنحن سنحتاج إلى كل كمية الدم!!!"

- فثُجيب: "ولكن، ولكن، إنه ابني الوحيد!"

- فيُجيبك الطبيب: "ولكننا نتكلّم هنا عن احتياج العالم كله... أرجوك أكمل توقيعك! نحن في عجلة من الأمر".

- تزدُّ وتقول: "ألا يمكن أن تُنقل إليه دماء أخرى؟"

- يُجيب الطبيب: "إذا كان لدينا دماء نقيّة، لكنّا أعطيناه... إذا سمحت أكمل توقيّعك".

وبأنامل مرتعشة، وبرجفة تسري في دمائك، تُكمل توقيّعك على صيغة الموافقة على أخذ كل دماء ابنك!!

+ "أفسحوا الطريق! تفضّل من هنا يا سيّدي! إنه هنا في هذا المكتب". وحينئذ تجد ابنك جالساً، وهو يقول لك: "أبي، أمي، لماذا أنا؟ ما الذي يجري ههنا؟ فتأخذ يديه بين يديك وتقول له: "يا ابني، إنّ أمك وأنا نُحبُّك ولا يمكن أن نسمح بأيّ أمر أن يحدث لك دون جدوى! هل تفهم هذا؟"

- وبعد ذلك يدخل الطبيب ويقول: "أنا آسف، ولكن علينا أن نبدأ! إنّ الناس يموتون في كل أنحاء العالم".

- فيردُّ ابنك: "أبي، أمي، لماذا هذا؟ ما الذي يحدث؟ لماذا تتركونني؟"

+) +)

بعد أسبوع من هذه الأحداث، يكون هناك لقاء لتكريم ابنك. ولكن، البعض كانوا نياماً، والبعض الآخر لا يفكّرون أن يأتوا. وهنا ألا تنفعل وتغضب وتصرخ قائلاً لهم: "إنّ ابني مات لأجلكم! ألا تفهمون؟ أو لا تهتمّون؟ هل يعني هذا أي شيء لكم؟"

+ هل هذا هو ما يريد الله أن يقوله لنا: "ألا تفهمون؟ ألا تُدركون أنّ ابني قد مات لأجلكم! ألا يعني هذا أي شيء لكم؟ ألا تهتمّون؟"

+) +)

+ «لأنّه هكذا أحبّ الله العالم حتّى بدّل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كلّ من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو 3: 16).

+ «(الله) الذي لم يشفق على ابنه، بل بدّله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضاً معه كلّ شيء؟» (عب 8: 32).

(1) "اللقاح" هو إدخال ميكروبات أو مادة معدية في الجسم بكمية مُقدّرة لإحداث درجة خفيفة من المرض، يتبعها توليد مناعة.